

الحوار الروائي من الوجهة التداولية في رواية "الدمية"

لـ: إبراهيم الكوني

الأستاذ: سعد بولنوار
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة الأغواط

هذه مقارنة نسبية لمقامات الحوار الروائي عن طريق الإجراءات التداولية، حاولت أن أخوض خلالها غمار التحليل النقدي لرواية من روايات إبراهيم الكوني وهي رواية الدمية، وفي البداية لا بأس في أن نحدد بعض المفاهيم وأول مفهوم هو الحوار.

الحوار لغة هو: من الأصل (الحوْر) بفتح الحاء وسكون الواو أي هو الرجوع عن الشيء، فيقال:

حار، يحور، حورا، وحوّورا: رجع، والمخار هو المرجع " والمخاورة: المحاورة والتحاور، يقال: تحاوروا، تراجعوا الكلام بينهم، وأحار عليه جوابه: رده، واستحاره: استنطقه، فالحوار في اللغة العربية هو الرجوع والمحاورة"¹.

و في الاصطلاح: هو مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين والأخذ والرد فيه "ومنهم من عرفه بأنه: نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين، ويتم فيه تداول

الكلام بينهما بطريقة متكافئة " ²، أو غير متكافئة لاختلاف في القواعد التداولية أي الخلفيات التي ينطلق كل واحد منهما في نسج مقولاته على منوالها.

وفي الحقيقة عندما نتحدث عن الحوار فإننا سنطرق باب بعض المفاهيم التواصلية، وليس مجالنا هنا أن نعقد مقارنة بين التواصل والحوار ذلك أن التواصل قد يكون أعم من الحوار في سياقات معرفية ومنهجية معينة وقد يكون الحوار أعم من التواصل لنفس الاعتبارات، ولكن هدفنا ههنا أن نضع الحوار في نصابه الصحيح من المفاهيم التواصلية باعتباره " عملية يتفاعل بها المرسلون والمستقبلون للرسائل في سياقات اجتماعية معينة والتواصل اللساني ينحصر في عملية التواصل التي تجري بين البشر بواسطة الفعل الكلامي ولكي يتصل فيه القول لا بد من استعراض منظورات ثلاثة عنه، وهي الدال والمدلول والقصد لتحقيق دائرة الكلام " ³، وهذا الاعتبار اللساني الأخير هو الذي يعيننا في المقام الأول مضافا إليها الخصائص المجازية والعدولية في الحوار الأدبي الذي نحن بصددده، وينبغي لنا أن نعرف بادئ ذي بدء من هو المتكلم ومن هو المخاطب حتى نلم بحيثيات التفاعل الحوارية في سياقاته الصائبة ؟

المتكلم والمخاطب:

بداية لا بد من الإشارة إلى أننا قد اقتصرنا على ما نراه رئيسيا بناء على المقتضى الذي يفرضه الحصر المنهجي واكتفينا على قطبين اثنين من أقطاب الحوار وهما (أغوللي) و(أهلوم)، وأول من أمسك بزمام المبادرة في هذا التفاعل الحوارية هو البطل (أهلوم) باعتباره متكلماً فيقع (أغوللي) في خانة المخاطب ثم ما يلبث الحال أن يصبح (أغوللي) متكلماً و(أهلوم) مخاطباً، فالعملية برمتها تبادلية لتحقيق الإنجاز الكلامي الذي يسعى إلى الهيمنة إدراكياً وفكرياً بواسطة الحجاج، الذي يحمل في طياته مقصديات معينة، وهذا كله في لغة مكتوبة بشقيها الحرفي والمجازي من حيث المعنى.

إن الصورة التي نتلقفها من خلال الملفوظات هي التي نستبين من خلالها البنية الكبرى لما يؤسس لخلفية المشاركين في الحوار أي أن النسق أو ما يسميه (ميخائيل باختين) بـ: الكلمة هو المحدد بتفاعله الحوارى لتداعيات المرامي الإيديولوجية أو الطابع السياقي لمحمل الحوار، وذلك أن (باختين) يرفض " التصور التقليدي الذي يرتاح إلى (الكلمات الميتة) أو إلى (الكلمة المحايدة) كما يقول ويذهب إلى (الكلمة المشخصة) التي يساوي وجودها وجود كلمات الآخرين فيها قبولاً أو رفضاً أو تقاطعاً"⁴، ومع ما يبيده (باختين) من إشارات تبدو واضحة إلى منطلقه الماركسي، فإنه يعترف ضمناً بوجود التفاعل لاختلاف في المشارب ما نراه في قوله " لا تصدر ماهية اللغة الحقيقية عن نسق مجرد للأشكال اللغوية... بل عن ظاهرة التفاعل الكلامي الاجتماعية، التي تتحقق من خلال التلفظ والتلفظات، وهكذا يكون التفاعل الكلامي حقيقة اللغة الأساسية"⁵، فما هي الخلفية الفكرية للمشاركين في التفاعل الحوارى إذا سلمنا بوجود هذا الاختلاف ؟

2-1-1- أهلوم:

يصدر البطل (أهلوم) على نحو كلي من قاعدة مفادها: إيمانه العميق بالحركة وذلك داخل مجال الاقتصاد والتجارة والذهب وعلى هذا الأساس فإنه يتميز بالواقعية إلى أقصى الحدود لدرجة المادية البحتة، وعندما نقول واقعي أو مادي فلا نقصد الواقعية أو المادية على حقيقتها كما تبدو في العالم المعيش ولكن نقصد العوالم المحاكية للواقع أي الواقع التخيلي الفني وذلك ليكون القارئ على بينة من ذلك، فـ (أهلوم) في هذه الحال ينثر التجارب المنطقية في لغته التي "تفترض مقدماً واقعا صار نثرياً وعلى أرضيته تسعى بقدر ما تسمح بذلك حالة العالم النثرية هذه إلى أن تعيد للأحداث وكذلك للأفراد ومصائرهم، الشعر الذي جردهم منه الواقع"⁶، والمقصود هنا اتسام واقعية الخطاب بشعرية اللغة والتي استطاع (أهلوم) الداهية أن يوظفها في لغته وذلك في قوله حينما أراده الناس زعيماً فأجابهم بأن (أغوللي) أنسب رجل لهذا المنصب وبأنهم مخطئون في

اختيارهم فيقول: "قلت لهم إن مكاني بجوار الزعيم، وليس فوق العرش الذي يتربع عليه الزعيم. قلت لهم إن عليهم أن يبحثوا عن الزعيم في أناس تعلمت كيف تستخدم رؤوسها لا في أناس لا تعرف إلا استخدام أيديها"⁷، فمن خلال هذا الملفوظ نلمح بعض التورية من خلال الادعاء بعدم معرفة السياسة في المعنى الحرفي غير أن المعنى المجازي يقول عكس ذلك بدليل القرينة الثانية التي يحملها الملفوظ "صدقت ما لمسته أنهم لا يفكرون بعقولهم، بل بقلوبهم"⁸، إذ أنه عارف لمكانة العقل والهوى، واتضح فيما بعد أنه من أكبر السياسيين، فالحمولة الفكرية تظهر في اهتمام (أهلوم) بالجانب المادي بممارسته للتجارة وتعامله بالذهب، ويتضح هذا في قوله: "لا أعشق التجارة لأنني حققت نجاحا في التجارة، لكني أعشقها لأنها علمتني أن أراها بعين أخرى... التجارة الحقيقة كالحياة... هل يستطيع مولاي أن يتوقف عن الحياة"⁹.

2-1-2- أغوللي:

مما يلاحظ على البطل (أغوللي) أنه قد التزم بالصمت أمام ثلاث خطابات ملفوظية في أول بداية للحوار مع (أهلوم)، وهذا يدل بطبيعة الحال على فلسفته الهادئة في الحياة ولميله لحياة الصحراء والخلاء، والقاطن لمثل هذه الأماكن أكثر في طبعه التأمل والتفكير في العوالم المثالية التي ينبغي أن يكونها العالم الواقعي فتبدو من هذا المنطلق أن الفلسفة التي يؤمن بها (أغوللي) هي الفلسفة المثالية.

هذا ويظهر من خلال الحوار أن الكاتب (المؤلف الحقيقي) قد جدد في الخطاب الفلسفي القديم بحيث ألبسه ثوبا جديدا ومغايرا، فهذه الجدلية لها عمق موغل في التاريخ الفلسفي أي منذ مثالية (أفلاطون) وواقعية (أرسطو) تلميذه، فإن كان هناك من تناص فإنه تناص من حيث الفكرة التي يجسدها هذا الخطاب الروائي عن ذاك الخطاب الفلسفي القديم باعتباره بوتقة للصراع بين أفكار مجردة وأخرى محققة.

2-2- المشاركون والمقاصد:

إذا كنا رأينا أمر الملفوظات وهي في أحد ظروف الاستعمال من حيث الكيفية، لا بأس أن نطرق بابا آخر وهو السؤال عن ما يُراد من هذا القول من قبل المشاركين، بمعنى ماذا يقصد كل طرف معين بما يقوله ؟

2-2-1- مقاصد أهلوم:

من خلال الحوار نلاحظ أن (أهلوم) كثير الكلام والإلحاح فيه، وهو دليل على نية مبيتة يرمي إليها البطل ويقصدها دون غيرها، وهذا القصد يكشفه النص الحوارى التالي الذي قاله في الأخير:¹⁰

ألم أكن عضوا في الجمع الذي زار بيتك وطلب منك أن تتولى الأمر ؟، ألم أكن قائدا للحملة التي طالبت بزعيم الدمية التي تدب على قدمين بدل الزعيم الذي يرقد في الضريح وهو عظم رميم ؟ فكيف فاتك أننا لا نريد إلا دمية ؟ كيف فاتك أن الأمر ككل أمر آخر في هذه الصحراء لم يكن إلا لها ؟ كيف كبرت، ونازعت، وأبيت إلا أن تغير مجرى الوادي ؟

فهذا النص الحوارى يوضح بشكل لافت المقاصد التي كانت قبلا مضمرة، فـ (أهلوم) يريد أن يلهو بالدمية وذلك بالتلاعب بها كيفما حركها خدمة لتجارته ومصالحه الخاصة ومن هذا المنطلق يتضح أن القصد يُعرف بحالتين هما:

تنصيب مجرد دمية (أغوللي) .

اللهو.

و هذه هي مراحل القصد من المهم إلى الأهم ففي البداية كان القصد أن ينصب (أغوللي) على رأس الزعامة وذلك بإغرائه والإلحاح عليه، ثم تطور القصد

إلى القصد الذي كان مضمرًا وهو أن (أهلوم) يريد من فعله هذا أن يلهو فقط ليس إلا وهو الأمر الذي حدث.

2-2-2- مقاصد أغوللي:

إذا ما رأينا الحوار بنظرة خاصة نجد أن (أغوللي) قليل الكلام فلا يكاد ينطق بشيء وأكثر ما يظهر عليه هو ذلك الابتسام (الذي يصفه الراوي) وبعض مقاطع الصمت التي تدل على موقف ما، ومقاصده بطبيعة الحال تُعرف عن طريق تفاعله مع (أهلوم) الذي يحفز ويحث ويدفع إلى الكلام.

وهذا التأمل الذي يطبع محياه هو ما يدل على مقاصده المثالية التي يتطلع إليها إذ أنه ونزولا عند رغبة (أهلوم) و(المجلس) يريد أن يحكم الواحة بمقاييس مستمدة من الصحراء، يقول (أغوللي) ¹¹:

من حَقِّك أن تخاف الهوى. سمعت حكيما يقول إننا لن نخاف الخفاء العظيم إذا لم نخف الأهواء !

وهل علينا أن نستسلم لهوى قوم اتخذوا من الأهواء ناموسا ؟

ليس أمامنا غير الامتثال.

ولم علينا أن نمتثل ؟

فـ (أغوللي) يَكُنُّ احترامًا كبيرًا لناموس الصحراء صاحب الخفاء العظيم، وهو بصنيعه هذا يقوم بتقدير النبوءة التي تحدث عنها الأسلاف على ما يعتقد ويرى، وهو على هذا الاعتبار يقصد إلى جعل العالم الذي يعيشه مثالًا بحسب المنطق الفكري للصحراء والخلاء.

بؤرة النسق التفاعلي:

في التركيب أعلاه تعمدت الجمع بين ما يدل على التركيز باعتباره المبتغى من وراء بحثنا عن الجذور الحقيقية للمعنى والنسق الذي هو جماع البنية في تمظهراتها الدلالية والذي يتفاعل والأنساق الأخرى محاورة ومجاورة، وهو الأمر الذي يمكن أن نقبض على وقائعه على نمطين متلازمين هما: المعنى الحرفي في الملفوظ أي ما يتبدى ظاهرياً كمعنى للملفوظ والنمط الثاني هو ما يحيل عليه النمط الأول ونقصد المعنى المجازي في الملفوظ أي معنى المُتلفِظ.

3-1- المعنى الحرفي للملفوظات:

في هذا الصدد لا بأس أن نتناول بعض المقاطع من أجل النمذجة للقضية التي نتحدث عنها ونبدأ بطبيعة الحال من أول الحوار. وما يُلاحظ هنا هو أن (أهلوم) قد أمسك بزمام المبادرة بثلاث ملفوظات على التوالي يعقبه مباشرة رد (أغوللي) بعد أن اختمرت فكرة (أهلوم) في ذهنه ¹²:

هنا تكلم البطل لأول مرة:

!أردت أن أسر إليك بحديث الدهماء

تصرف (أغوللي): التبسم - دحرجة الحجر بنعله - متابعة آثار الأنعام بنظره.

جاؤوني البارحة للمرة الثالثة، وأعادوا على رأسي ما قالوه لي أول مرة.

تصرف (أغوللي): اللامبالاة والصمت.

قالوا إنهم يريدون زعيماً ككل القبائل.

تصرف (أغوللي): الصمت في البداية، قبل أن يتكلم لأول مرة:

ألم يقنعوا بالضريح زعيماً؟

فالمعنى الحرفي يظهر في الملفوظ الأول أن آهلوم يريد أن يسرّ لمتكلمه بحديث الدهماء فهذا المعنى الخطي جليّ لا حاجة معه للتأويل، ثم في الملفوظ الثاني نلاحظ أن الأمر نفسه على البنية الخطية ولكن هناك مجهولين لا نعرفهما قد جاءوه للمرة الثالثة وفي الثالث يصرح (آهلوم) على ألسنة المجهولين بأنهم يريدون زعيما أي مطلبهم يتمثل في الزعيم.

ينطق (أغوللي) ألم يقنعوا بالضريح زعيما، هذا التساؤل نفهم من خلاله بأنهم قد أخذوا زعيما من قبل يتمثل في الضريح وهم يطلبون زعيما آخر فالحرفية هنا في ظاهره تدل على التملك أي أن من يقرأ الملفوظ على حاله فإنه يستنتج بأن الزعيم مجرد شيء قابل للتملك.

نأخذ نموذجا آخر من موقع آخر للحوار ولنختاره من الحديث الذي دار في المجلس حين تنصيب الزعيم:¹³

"علا في الجموع هرج. علت صيحات استنكار وغضب. تجاسرت الصفوف الخلفية فلوحت في الفضاء بقبضات الوعيد.

في مكان ما من الصفوف الأمامية، ارتفع صوت:

!تقولون عن زعيم الدنيا دمية، ونقول عن الزعيم الذي هجع رميما

رددت الأصوات القول كأنها تكرر نداء، كأنها تحاكي النذير الذي كرر قول سليل الأكابر:

تقولون عن زعيم الدنيا دمية، ونقول عن الزعيم الذي هجع رميما.

نرى في الملفوظ أعلاه بأنهما متطابقين أو هما نفس الملفوظ الفرق الوحيد يكمن في المتلفظ، فالأول سليل الأكابر والثاني لجموع المجلس.

وستتناول المعنى الحرفي لا باعتباره هدفا في ذاته ولكن لفصله مؤقتا عن سياقه من أجل التأطير النظري لاشتغال التفاعل الحوارى لأن " المشكل المركزى لنظرية المجاز هي التفسير الدقيق للمبادئ الوظيفية لتلفظ تعبير ما، يمكنه أن يستدعي مجازيا مجموع شروط الحقيقة " ¹⁴ على ما يرى (سيرل)، ومن منطلق كهذا لا بأس أن نَهْبُّ إلى الملفوظات السالفة لنرى بعدها الحرفي.

فالملفوظ الأول يتحدث عن زعيم الدنيا على أنه دمية، أي تلك اللعبة المعروفة التي يلهو بها الأطفال، والزعيم الذي هجع ريمما. بمعنى الزعيم النائم نوما ثقيلا هو الآيل للاندثار فيجدر ترميمه، ثم نكرر الملفوظ مرة أخرى.

زعيم الدنيا ⇐ رميم

الزعيم الهاجع ⇐ دمية

3- 2 - المعنى المجازي للملفوظات:

نأخذ الحوار الأول لنستقري منه المجاز:

!أردت أن أسر إليك بحدث الدهماء

تصرف (أغوللي): التبسم - دحرجة الحجر بنعله - متابعة آثار الأنعام بنظره.

جاؤوني البارحة للمرة الثالثة، وأعادوا على رأسي ما قالوه لي أول مرة.

تصرف (أغوللي): اللامبالاة والصمت.

!قالوا إنهم يريدون زعيما ككل القبائل

تصرف (أغوللي) : الصمت في البداية، قبل أن يتكلم لأول مرة:

ألم يقنعوا بالضريح زعيما ؟

3- 2- 1 - مجاز الحركات:

فالجزء يتبدى في تصرف (أغوللي) إذ أن الحركات التي يقوم بها ليست حركات اعتباطية فإن لها دلالة عميقة، ويمكن أن نحدد تلك الحركات كالاتي:

- | | | |
|--------------------------------|---|----------------|
| أ. التبسم | ⇐ | حركة تعجبية. |
| ب. دحرجة الحجر. | ⇐ | حركة انفعالية. |
| ج. النظر بمتابعة آثار الأنعام. | ⇐ | حركة تأملية. |

نلاحظ أن الحركات لا يُفهم منها مجرد حركات فقط بالصورة الخطبية التي نعرفها، ولكن هي في الحقيقة تعبير عن حالة من الحالات الداخلية للإنسان، فبمجرد أن نطق (أهلوم) الملفوظ الأول حتى توالى تلك الحركات في انسياب عجيب، ففي البداية حدث لديه فعل التعجب سببه المفارقة الإدراكية بين ما يسمعه وبين ما أُلْفِه من سنن معين في الواحة التي يعيش فيها وهذا ما جعله ينفعل بدحرجته للحجر برجله وسرعان ما أحكم رباطه جأشه وجعله يفكر ويحلل هذه السابقة الخطيرة ما تدل عليه حركة النظر إذ أنه بدأ متابعة آثار الأنعام ثم أن ملفوظ (أهلوم) الأول نفترض منه مسبقا إحدى المقولات:

أن (أغوللي) على علم ومعرفة بمن جاءوه فقط.

أن (أغوللي) على علم ومعرفة بمن جاءوه وغرضهم بالضبط.

أن (أغوللي) على اطلاع بشخصية (آهلوم) الماكرة لهذا لم يرتح له.

وهكذا إلى أن استفزته ملفوظات (آهلوم) ونطق بملفوظ:

ألم يقنعوا بالضريح زعيما ؟

وهذا في الحقيقة فعل للتساؤل في ظاهره الحرفي ولكنه في عمقه المجازي عبارة عن تعجب، إذ القصد بالضريح ليس الضريح على الحقيقة ولكن يقصد من ذلك السلطة الخفية الماورائية التي تحمل طابع التقديس والتي ينبغي عدم مناقشتها والتسليم بما بمعنى هل صار مطلبهم أكثر من مجرد هذه السلطة.

3-2-2- المجاز ومفهوم القاعدة:

في النموذج الذي يليه نلاحظ صنفا آخر من المجاز ما يظهر في التراسل التالي:

سليل الأكابر: تقولون عن زعيم الدنيا دمية ونقول الزعيم الذي هجع رميما.

النذير رفقة الجموع: تقولون عن زعيم الدنيا دمية، ونقول عن الزعيم الذي هجع رميما.

بداية يكمن المجاز في ما يلي:

أن القصد في مقولة زعيم الدنيا دمية هو أن الزعيم مجرد شخص فاقد لشخصيته ينصاع لكل من سولت له نفسه بإبداء رأيه، والقصد بالزعيم الذي هجع رميما بمعنى أنه صار من الماضي لا يستطيع أن يجابه الحاضر والمستقبل.

وأول من صاح بهذا الملفوظ هو سليل الأكابر إذ أنه ينتمي إلى قاعدة من علياء القوم وصوته محسوب له ألف حساب والدليل على تأثيره القوي في المجلس تكرار النذير والجموع لمقولته الذين هم أقل منه قاعدة، وهو ما أسمح لنفسي تسميته بالتراسل التأثيري ما بين القواعد.

وظيفة الحجاج في التفاعل الحواري:

يربط (حازم القرطاجني) الحجاج بالإيهام بالحقيقة أو الإيهام بالمنطق " وربما تجاوز ذلك إلى أن يُخيل أوصافا يوهم أن لها حقيقة في تلك الجهة من غير أن يكون كذلك في الحقيقة بل على أنحاء من المجاز والتمويه ليبالغ بذلك في تمثيلها للنفس " ¹⁵ ، ونفهم من هذا القول أن الإقناع إنما يحدث نتيجة الإتيان بما يلقي القبول في الذهن على نحو يُقارب المنطقية أو يتساقق والمنطقية، وهو ما يتمثل في تقديم الحجة أو البرهان لتأكيد صحة قضية ما، وعلى هذا الاعتبار يبنّي الحجاج " على مبدأ الاستدلال على حقائق الأشياء مجتمعة إلى مقاصدها للعلم بالحقائق والعمل بالمقاصد. بمعنى أن الحجاج يزدوج فيه طلب معرفة الواقع وطلب الاشتغال بقيمته، وقد توافق قيمة المستدل عليه واقعه، فتصادف مقتضياته الحجاجية مقتضياته البرهانية " ¹⁶ والعكس من ذلك صحيح، إذ أن المراد بذلك حسب الدكتور (طه عبد الرحمان) هو ذلك التعلق الذي يجعل أحد الطرفين مستتبعا للآخر بين معرفة الواقع والاشتغال بقيمة ذلك الواقع ثم هناك فرقا بين البرهان باعتبار أنه يبنّي على مبدأ الاستدلال من أجل المعرفة فقط وبين الحجاج الذي هو الاستدلال من أجل المعرفة ومن أجل العمل بمقاصد تلك المعرفة، فقد يخالف العمل بالمقاصد الطبيعية الاستدلالية للبرهان وهذا ممكن الحدوث في اللغة المجازية التي تعتريها الاستعارات، وقد يأخذ الحجاج مظاهر عدة من بينها: الحجاج التوجيهي والحجاج التقويمي، ويعتمد الحجاج على وسائل وتقنيات يسميها ¹⁷ ، وفي العربية Connecteurs Argumentatifs (مانغينو) بالروابط الحجاجية تتمثل في فيما يلي: ¹⁸ ألفاظ التعليل (لأن)، الأفعال الكلامية، الحجاج بالتبادل، الوصف، تحصيل الحاصل.

4 - 1 - السلم الحجاجي:

نلمح على صعيد الخطابات الأدبية وعلى الحوار بصورة خاصة أن هناك تلاهما بين القضية والحجة التي تعضد هذه القضية سواء تمنطقت أو أوهمتنا بمنطقية

الدعوى على نحو مجازي، حيث تتدافع الحجج بحسب قوتها، وتبقى في الأخير الحجة الأقوى أثرا والأكثر إقناعا وكل هذا يسير وفق ترتيب معروف يدعى: السلم الحجاجي، الذي هو عبارة عن " مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموفية بالشرطين التاليين:

كل قول يقع في مرتبة ما، من السلم يلزم عنه ما يقع تحته بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

كل قول كان في السلم دليلا على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة أقوى عليه.

و له ثلاثة قوانين، هي:

قانون الخفض.

قانون التبديل.

¹⁹قانون القلب. "

2- البعد الحجاجي عند آهلوم:

سنأخذ في هذا المقام معالم الهيمنة الحجاجية عند هذا البطل (آهلوم) ضمن المسار الحوارى لنقف على طبيعة الإقناع التي انتهجها والوسائل التي اعتمدها ولنأخذ هذا المقطع على سبيل التمثيل لا الحصر ²⁰:

ولكن (آهلوم) تكلم بلغة لا أثر فيها لأسحار أهل الوجد:

الذهب قدر الواحات لماذا لا تريد أن تسلم بهذا الأمر ؟

مضى الزعيم يترنح مسدلا لثامه على عينيه. تكلم باللفظ الملحون:

كيف تريدني أن أسلم بأمر يخالف الناموس ؟ كيف تريدني أن أنتهك وصايا الأسلاف ؟

لقد تركنا الأسلاف في أضرحة الخلاء. نحن الآن أهل واحات. نحن اليوم أبناء (واو) للخلوات شرع، وللواحات شرع لماذا لا تريد أن تعترف بذلك ؟

كيف تريدني أن أعترف بأمر رأت فيه الوصايا نحسا ؟ هل أنا أكثر علما من السلف ؟ هل أنت أكثر دهاء من أجدادنا الأولين ؟

لم يركن أجدادنا إلى أرض ولم يعرفوا في أسفارهم الأبدية حرفة التجارة.

وما حاجة سليل العبور إلى حرفة التجارة ؟ ما حاجة قوافل المهاجرين إلى المتاع.

هنا تكمن العلة. أنت لا تريد أن تقر بأننا لم نعد من أهل العبور منذ زمن بعيد. أنت لا تريد أن تعترف أننا نركن إلى الأرض منذ أربعين عاما. أنت نسيت وصية الناموس القائلة بأن الركون إلى الأرض أربعين يوما شارة عبودية للأرض، فكيف إذا كان عدد الأربعين لا يعد بحساب الأيام، بل بحساب الأعوام ؟

من ركن إلى أرض صار عبدا للأرض، ومن صار عبدا للأرض، وجد نفسه يقايض البضائع بالغلal ويحترف التجارة، ومن احترف التجارة اقتنى هباء النحوس أليس هذا ما تريد أن تقنعني به ؟ أليس هذا ما أغراك بإخفاء المعدن الكريه في بيتك ؟

- نعم. لن أنكر أبدا أنني دسست تبرا كما دسه كل الأكابر في البيوت دسسته لا استسلاما لبهائه الذي يأسر النساء أو ضعاف النفوس، ولكن لأن امتلاكه يكمن فيه الأمان.

الأمان ؟

نعم يا مولاي. التبر في يد صاحبه بر أمان. التبر سر حياة كل من اختار الأرض وطنا.

عجبا أسمع ؟

هذا ليس رأيي وحدي. وهذا رأي كل الأكابر. هذا رأي أهل الواحة جميعا بما في ذلك أقرب الناس إليك

ماذا تريد أن تقول ؟

!أرت أن أقول إن الذهب ضُبط في بيت ابنتك الوحيدة أيضا

!لا

ألم يحدثك بالأمر الأعوان ؟

!لا

ها أنت تعلم أن خصمك شبح لم يخل منه في الواحة بيت. ها هو يتجاسر فيغزو بيتك أيضا.

عاد يترنج. توجع بأنين جديد. تساءل آهلوم ؟

أما زلت ترى في معشوق الدنيا عدوا ؟

إذا نظرنا إلى هذا المقطع الحواري بمناظر السلم الحجاجي فإننا نجده يتألف على هذا النحو:

القضية: الذهب قدر الواحات.

الحجة الأولى: الأسلاف في أضرحة الخلاء، نحن الآن أهل واحات.

الحجة الثانية: لم يركن أجدادنا إلى أرض (خلال حياقم)

الحجة الثالثة: الأسلاف يقولون أن من ركن إلى الأرض أربعين يوما صار عبدا لها، فما بالك بالأربعين

ر.
المهم
إلى
سلم
الحجاج
↓

عاما (على حد تعبير آهلوم) .

الحجة الرابعة: امتلاكه يكمن فيه الأمان.

الحجة الخامسة: هذا رأي الأكابر.

الحجة السادسة: إن الذهب ضُبط في بيت ابنتك
الوحيدة أيضا.

فهناك ست حجج اعتمدها (آهلوم) من أجل إقناع (أغوللي) فهل اقتنع وأين
مظهر الاقتناع ؟

نرى بوضوح أن (آهلوم) قد نال من خصمه (أغوللي) بأن أقنعه وتمكن منه
بواسطة التدرج في السلم الحجاجي الذي اعتمده بما يتبدى في الملفوظ:

!- لا

.....-

عاد يترنح. توجع بأنين من جديد...

وقد استعمل في ذلك روابط عديدة من مثل الحجاج بالتبادل، حينما نفى بـ
(لم) أن يكون الأسلاف قد ركنوا إلى أرض، التبرير بـ (لأن) من مثل " لأن
امتلاكه يكمن فيه الأمان"، وبالشرط مثل استعمال (من)، والإخبار بالوصف
من مثل " التبر سر كل من اختار الأرض وطننا"، والتأكيد (إن) في قوله " إن
الذهب ضُبط في بيت ابنتك الوحيدة...."، والاستفسار التعجبي من مثل " كيف
إذا كان عدد الأربعين لا يعد بحساب الأيام بل بحساب الأعوام"، والإشارة

هنا تمكن العلة.... " و " هذا ليس رأيي... هذا رأي كل الأكابر... " و " ها أنت تعلم أخيراً أن خصمك شبح " وغيرها كثير.

فلاحظ أن (أهلوم) قد تدرج في الحجج بترتيب منطقي بحسب القوة، ثم نرى أن استعمالاته من الروابط الاستفهامية، التعجبية، والإنكارية، قد هيمنت على الملفوظات التي اعتمدها مواطننا للحجاج ما يدل معه على استعداد الطبعي على مثل هذه المناورة الإقناعية وقدرته على إدارة زمام الحوار على حسب هواه والدليل على ذلك أنه أجل الحجة التي تتعلق بامتلاك ابنة (أغوللي) للذهب وجعلها في المرتبة الأخيرة وذلك لقوتها الدحضية الكبيرة واكتفى بالحجج الأولى، ولما رآها غير موفية بالغرض استعمل هذه الحجة الأخيرة كآخر حل ونجح في ذلك بأن خلق عنصر الإدهاش والصدمة عند خصمه.

4-3- البعد الحجاجي عند أغوللي:

يعتبر (أغوللي) الطرف الثاني في هذا التفاعل الحواري وله أيضاً من مظاهر الغلبة ما يوجد في ثنايا الحوار إذ رغم بعض الالتباسات الحجاجية التي حالت دون بلوغه الهدف في محاوره غريمة فإنه يملك من الآليات ما يجعله مقنعا ولكي نكشف ذلك لا بد أن نختار نموذجاً معيناً بما يتمثل في الآتي:²¹

ترنح الجريح. جاهد بسؤال:

– يدهشني أن أسمع كل هذا من فم إنسان تغنى يوماً بالتجارة كما يتغنى العاشق بمعشوقه حسناء.

– أخشى أن الأمر اختلط عليك في ذلك اليوم فأسأت فهمي لم أنكر يوماً أن التجارة معشوقتي، لا أنكر اليوم أيضاً أن التجارة هي لحي الأثير، أغنييتي التي أستعين بها على قساوة الحياة. اللهو يحتاج أيضاً، إلى أغان. التجارة أغنييتي،

عزائي، ترياقِي، بلسم همي، فكيف تريدني ألا أتغنى بأشعاري؟ كيف تريدني ألا
أردّد لحون وجدي؟

لم أفهمك اليوم. لم أفهمك بالأمس. لم أفهمك في يوم من الأيام.

يحزني أن نفترق دون أن تفهمني.

.....-

في كل حال لا أملك إلا أن أشكركم لأنكم... لأنكم جنبتموني رؤية
وجوهكم بعد اليوم.

عاد كبير التجار يجادل بالحماس نفسه:

بلوتك أنك لم تستطع أن تفهم أن القرين لم يخلق بجوار القرين، منذ أول يوم
إلا كعدو كيف تطمح في الفوز بالسعادة إذا كنت لا تريد أن تفهم هذا؟

هيهات...

صدقت. هيهات أن يعرف الإنسان السعادة، إذا لم يتعلم اللعب.

العبوا، والهوا، واعرفوا سعادة الأحياء، ولكن الحقيقة من نصيب الأموات،
اللهو قدر الأحياء، أما السعادة فهي سر الأموات.

ماذا تريد أن تقول؟

ومن هذا المنطلق يمكن أن نختصر السلم الحجاجي للمفوضات (أغوللي)

كالتالي:

→ من المهم إلى الأهم ←

فقد انتقل الحجاج من التذكير (من الذكرى) عن طريق التلاعب بالجاز والكنية وصولاً إلى التصريح في آخر مرحلة، حيث أعرب عن وجهة نظره التي تعتبر من الوجهة الفلسفية منطقية جداً بقوله أن السعادة هي سر الأموات فالإنسان خلال حياته لا يستطيع أن يحدد أو يعرف أو يعطي مفهوماً معيناً للسعادة للزُبُقية المركزة التي تحيط بها من كل صوب باعتبارها تيمة مجردة تتعالى كلما أوغل الإنسان أن يصاقب فحواها، و(أغوللي) تجرّد هو الآخر وألقى بها في الجانب الآخر من الحياة مادامت الحياة لا تستطيع أن تستدرّ بضاعتها فتخرج من مكنونها إذ يمكن أن يكون الموت سعادة في نظر (أغوللي) وإذا كان هناك من قصد معين فقد يمكن أن يكون

منطوق الآية الكريمة: ﴿ قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ﴾²³ ، فرهد (أغوللي) عن الدنيا ورغب في الأبدية التي تتمثل في الآخرة وتحدث الفلسفة الغربية في أن الإنسان لا يعتبر حرّاً منذ ولادته وخلال حياته ولكنه عند ما يموت يتحرر. ويبدو أن (أهلوم) خصمه اللدود لم يفهم هذا التعبير وهو بهذا بيّن ضعف معرفته فهو يعرف الحياة وهوها فقط بدليل الملفوظ:

ماذا تريد أن تقول ؟

فقد هزم (أغوللي) آهلاً بأن جعله ضمن نقاش فلسفي ومعرفي يتجاوز مدركاته التي تتميز بالحسية والمادية وظهر عيبه في أنه لا يعرف عن أمور الروحانيات شيئاً، ولم يستعمل في ذلك الكثير من الروابط، اللهم إلا (إن) وأداة التخيير (أما) والنفي (لم) وهي توحى بقدرته على صنع الخيارات المنطقية ونفي بعضها وتأكيد بعضها الآخر.

القوة الإنجازية للتفاعل الحواري:

أي تفاعل حوارى إلا ويسوق معه نتائج إقناعية لأحد الطرفين أو كلا الطرفين، كما تصاحبه مظاهر من الإنجاز للأفعال وقوتها وكذا العديد من الوظائف التداولية التي تقع على طرفي المحاور، وهذا ما سنقاربه في هذا الصدد وسنبداً من الأفعال الكلامية.

5-1- الأفعال الكلامية المنجزة:

يمكن في هذا الإطار أن نحدد ثلاث أنماط يشملها الفعل الكلامي بتحقيقاته وهي كالتالي:

أ - فعل القول (أو التلفظ) : وهو ما يتجسد فيما سبق وقد ذكرناه ضمن النماذج الحوارية التي أوردناها آنفاً وكذا النماذج في السلم الحجاجي، وهي الأفعال الناجزة قولاً على نحو خطي ضمن مستويات صوتية وتركيبية ودلالية.

ب - الفعل المتضمن في القول: وهو العمل أو الأثر الناتج جراء فعل القول أعلاه من سؤال أو إجابة سؤال أو إصدار تأكيد وتحذير ويمكن أن تمثل لذلك بواسطة هذه النماذج:

أغوللي: حسن. أي جزاء تريده الطفولة كي يتحرر صاحب العقل من الخطأ؟

أجاب صاحب اللثامين بعناد الطفولة²⁴:

يفعل مولاي خيرا إذ يأمر بإنهاء الحمله.

إنهاء الحمله ؟

اليوم قبل الغد.

هذه طفولة حقا

يفعل مولاي بذلك خيرا بنفسه أولا، وبغيره ثانيا.

هل هذا وعيد ؟

يحسن مولاي صنعا إذ يعجل قبل أن يعم البلاء

فلاحظ بجلاء تام كيف أن " فعل القول " الذي أصدره (أغوللي) أسهم في نشوء (فعل متضمن في القول) من قبل (أهلوم) متمثلا في فعل التحذير.

ج- الفعل الناتج عن القول: وهو ما ينتج كآثار لذلك الفعل المتضمن في القول وقد سماه بعضهم الفعل التأثيري²⁵:

– انحسر طرف لثامه السفلي (أهلوم) عن شفثيه فرأى كيف يتزف منهما الزبد. اكتشف، أيضا، أنه كان يرتحف، يرتحف بشدة. خُيل له، أيضا، أنه سمع صوت أسنانه وهي تصطّك وتصطقق كصريع الحمى....

فالأثر نلاحظه بوضوح في هذا الملفوظ إذ نتج عن ذلك التضمن القولي بعض السّماء التي تدلل عن آثار في المشاعر لدى (أهلوم) .

ولا بأس أن نتناول نموذجا آخر للتدليل على هذه القضية²⁶:

أهلوم: – كثيرا ما أتجسس على أولئك البلهاء الذين ركنوا إلى حياة السكون فأندesh كيف لا يموت هؤلاء بسبب الوحشة.

ولو سألنا هؤلاء عن حياة التجار لاندeshوا كيف لا يموت هؤلاء بسبب البليلة.

يقولون ذلك يا مولاي لأنهم لم يعرفوا فتنة التجارة.

وهم يقولون إنكم تعادون الزهد لأنكم لم تعرفوا هناء السكينة.

هراء يا مولاي. إنهم ينعنوننا بأشد الأوصاف شرا، ظنّا منهم أننا لا نمارس التجارة إلا لتربية المال.

فالملاحظ هنا أن " فعل القول " التابع لـ (أهلوم) أنتج ما يقابله من حجة جاءت في ثنايا " فعل متضمن في القول " بصورة استفهام تعجبي.

وهذا الاستفهام التعجبي – بطبيعة الحال – جاء ضمن فعل القول الذي نتج عنه رد فعل آخر من قبل (أهلوم) أو فعل متضمن في القول في صورة تبرير باستعمال الأداة " لأن " .

ولكن هذا التبرير باعتباره فعلا قوليا وجد ما يقابله أو يكافئه من تبرير آخر باعتباره فعلا متضمنا في القول من قبل (أغوللي) وأيضا باستعمال الأداة " لأن " .

وعلى هذا الأساس نتج فعل " من هذا التفاعل بين فعل القول وفعل التضمن القولي، وهو الفعل الذي جسده الملفوظ الأخير (هراء يامولاي) إذ يوحى بالتشبيط والشعور بضعف الحجة والقدرة على التأثير.

و في الأخير نرجو أن نكون قد أصبنا بعضا من الهدف المنشود بواسطة هذه الممارسة التطبيقية في لغة ومقام الخطاب الروائي وكما هو معلوم فإن الإستراتيجية التداولية لازالت على محك التجريب ومفاهيمها تتكون وتتطور بتجولها على مختلف أنماط الخطابات تأصيلا وتأسيسا.

الهوامش: